المجلة الدولية للتنمية - المجلد االثامن العدد الاول (2019) :107 -113 (مقالة)
International Journal of Development, Vol.8, No.(1) (2019) : -107-113
ISSN: 2314-5552 ISSN: 2314-5560 (Online)
www. ijd.byethost13.com e-mail: ijd_fas@yahoo.com

جرائم في بيئات أسرية من مجتمع فاضل: منظور نفسي اجتماعي بيولوجي

زكريا احمد الشربينى
جامعة الملك عبد العزيز – كلية الاداب والعلوم الانسانية

تعد جرائم القتل العمد Murderمهما تكن دوافعها وأسبابها من أبشع جرائم الإنسانية وحتى غير المتعمدة. وكلما ازدادت الحياة تعقيدا وصعوبة وكثرت الضغوط النفسية Stress أو طغت الماديات على القيم والمبادئ الأخلاقية والمعنوية ازدادت هذه الجرائم وانتشرت بالعدوى والمحاكاة بين غير الأسوياء وضعاف النفوس، و أهل الشر، وربما بين المصابين بالعطب والخلل العقلي واللاتوازن Mental imbalance واضطرابات الانحراف الإجرامي Criminal deviation disorders، واضطراب ما بعد الصدمة .P.T.S.D الذي يصيب أفراد عاديين نتيجة الأزمات والكوارثDisasters. وما بين الحين والآخر تطالعنا الأخبار بمثل هذه الحوادث سواء في صورة قتل أقارب أو أغراب. ومن أبشع صور القتل هو قتل الأقربين والأبناء، خاصة الأطفال الذين لا حيلة لهم في الدفاع عن أنفسهم أو معرفة بأي ذنب يتعرضون لهذا العدوان الآثم. ومن الناحية الدينية، فإن كل الشرائع السماوية تجرم وتحرم قتل الغير إلا في حالة الدفاع عن النفس وفي حالة الحرب دفاعا عن الوطن. ومن الناحية النفسية والعقلية، فإن مبررات هذا الفعل لا يمكن أن تختزل في مجرد التشكيك في مدى السوية العقلية والدوافع النفسية Psychological motives التي تجبر القاتل على الاقدام على مثل هذه الجرائم. وهنا يمكن القول إن الارتباط بين تفاصيل فعل الجريمة وبين حالة القاتل العقلية أو النفسية قبل وأثناء وبعد ارتكابها هو الذي تبنى عليه مدى مسؤوليته الجنائيةCriminal responsibility[1] ، وبالتالي العقاب المستحق عليه.

ثمة جرائم تقليدية لها تاريخ وتراث في المجتمع، كتجارة المخدرات والبلطجة والسرقة، لايمر يوم دون أن تشاركنا ضوء النهار وظلمة الليل وحرارة الصيف وبرد الشتاء، وحتى أثناء الصيام، وهناك الشتائم الشعبية الدارجة على الألسن، وجرائم أخري تزورنا على أيام أو تسقط على رؤوسنا أحيانا، ونراها في أفلام السينما وشاشات التليفزيون أكثر من الواقع مثل الخطف والسطو المسلح.

وثمت جرائم يقف المرء أمامها في حيرة، تبدو بلا معني أو سبب منطقي أو دوافع عاتية ويسأل: هل هذا خلل في الطبيعة الإنسانية أم خلل في البيئة المحيطة بالفاعل؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة، ولو عدنا إلي أول جريمة إنسانية، كانت بين أبناء آدم قابيل وهابيل، من الذي علم الأخ قابيل سفك دماء أخيه هابيل؟ وكيف واتته فكرة القتل البشعة، ولم تكن هناك جريمة قبله يمشي على خطاها؟

والقتل في عرف علماء النفس هو لحظة عدم سيطرة على العقل، ويقول العوام جنون مؤقت Mindless or crazy، يفقد فيها القاتل عقله ويتصرف بوحشية نابعة من غريزته ومشاعر الحقد المسيطرة عليه دون كوابح من قيم أو أخلاق أو دين، فماذا عن هذا الطبيب الذي اعترف بقتل زوجته وأولادهما الثلاثة عام 2019 في مدينة كفر الشيخ[2] دون رحمة؟ هل المرض النفسي أو العقلي يفسر قتل الزوجة غضبا منها وقتل الصغار رحمةً بهم؟

بالقطع الإنسان هو من بين أعقد ألغاز الكون وسيظل كذلك. ولأن جريمة الطبيب تبدو بلا دوافع منطقية، ويصعب أن تشكل ضغطا عصبيا Nerve pressureعلى مراكز المخ، لتجرفه إلي عملية قتل رباعية. الطبيب المعترف كان مديرًا لوحدة صحية، متزوج منذ عشر سنوات تقريبا، وله ثلاثة أبناء، ولدان وبنت، وتجاوز بأعوامه الثانية والأربعين مراحل التقلبات النفسية العنيفة تقريبا، وبدأ الرسو على شاطئ التأمل والرزانة وردود الأفعال الهادئة نسبيا. أذن كيف يقدم على القتل بهذه السهولة المفرطة؟ وهذه أسئلة أجاب عليها:

س: هل قتلت زوجتك وأطفالك الثلاثة؟

ج: نعم قتلتهم.

س: متي قتلتهم؟

ج: حوالي الساعة 2 ظهر الاثنين الماضي 31 ديسمبر 2018.

س: كيف تمت جريمة القتل؟

ج: خنقت زوجتي أثناء نومها في صالة المنزل بحبل الستارة، وطعنتها في رقبتها بسكين المطبخ.. ثم ذبحت ابنتي الصغيرة ليلي 4 سنوات أثناء نومها مع والدتها في الصالة. وبعدها ذبحت عبدالله 8 سنوات، وعمر 6 سنوات، وهما نائمان في غرفة نومهما.

وفكرت ماذا أفعل؟ فأخذت مشغولات زوجتي من الذهب والسكين ودفنتهما في منطقة الجزيرة، وعدت وتحدثت مع الجيران، حتي أبعد الشبهة عن نفسي، وصعدت لشقتي، وناديت صارخا للبواب: مراتي وعيالي مقتولين!

س: لماذا قتلت زوجتك؟

ج: توجد بيننا خلافات أسرية منذ 6 أشهر، إلى جانب خلافات بيني وبين أسرتها، فقررت قتلها صباح يوم الجريمة، لأن الحياة أصبحت مستحيلة بيننا.

س: ولماذا قتلت أطفالك؟

ج: شعرت في لحظة جنونية أن الأطفال مصيرهم مجهول بعد قتل أمهم وحبسي؛ لذلك قررت قتلهم.
س: لماذا دفنت أداة الجريمة والمشغولات الذهبية بعيدا عن المنزل؟
ج: حتي أبعد الشبهة عني، وأُظهر الأمر على أنه قتل بدافع السرقة.
هل في أقوال هذا المتهم أمام النيابة دوافع تجبره على التحول من طبيب إلي قاتل؟ نحن نتحدث عن طبيب يدرك قيمة الحياة والموت، ومهمته الكبرى هي الفصل بينهما..وليس له تاريخ في العنف..ولم يزر قسم شرطة من قبل.
ألم يكن متاحا أمامه أي حلول أخري لهذه الخلافات غير سفك الدماء؟
كيف نفسر جرائم القتل الجماعي - أن متعلما في الثانية والأربعين قتل زوجته بسبب خلافات أسرية أو مالية ثم يقتل أولاده الثلاثة من باب الرحمة بهم.
عرفنا جرائم قتل بسبب الشرف أو اغتصاب حقوق أو تحقير من شأن القاتل أو إسقاطه من مكانته الاجتماعية المرموقة إلي حضيض اليأس أو علاقات عاطفية مشبوهة..لكن ليس لمجرد منغصات Trigers خلافات اسرية أفسدت الحياة بينهما إلي درجة الاستحالة..
ألم يكن الطلاق Divorce حلا متاحا حتي لو كان مؤلما لنفسية الأولاد؟ الأكثر غرابة من القاتل هو التفكير في الهروب بجريمته، ولو تصورنا نجاحه فكيف يعيش مع زهق دماء أولاده؟
وتخطيط الفكاك من الجريمة ينفي تماما شبهة المرض النفسي أو العقلي، فهو في تمام وعيه، وقادر على استيعاب فعلته، وفي الغالب لديه اضطرابات نفسية Psychological disorders ويفهم العواقب التي ستحيط به لو أمسكت به الجهات الأمنية .
تذكرنا هذا الجريمة، بأخري وقعت في الإسكندرية قبل سنوات[2]، كان الوقت بعد الظهر حين دخلت سيدة محجبة في ملابس سوداء إلي قسم المنتزه وهي تصرخ: أولادي قتلوهم أولادي ذبحوهم.
سألها الضابط: أين هم؟
قالت: جثثهم في البيت.
ونزل معها ضابط المباحث، فوجد صبيًا ملقى على وجه بأرضية الحمام مذبوحا من رقبته، وجثة أخته بنفس الطريقة على أرضية المطبخ!
قالت الأم: خرجت اشتري بعض حاجيات البيت وعدت وجدتهما مقتولين. الأم في الثالثة والأربعين من عمرها، كانت تعمل مدرسة، ولحقت بقطار الزواج وهي في الثلاثين قبل محطته الأخيرة، مع مهندس كهرباء يكبرها بست سنوات، عاد من هجره مؤقتة بدولة خليجية! وحين أنجبت بنتين وولدا، تركت عملها في المدرسة وتفرغت لأولادها، ومصادفة هي التي أنقذت البنت الكبيرة من القتل، وعمرها ١٢ عاما، إذ خرجت لزيارة جدتها في صباح ذلك اليوم. وواجهت الشرطة من الصعوبة والمفارقة، أم تبدو مثالية هجرت عملها من أجل تربية أولادها، وأب حسن السمعة بلا عداوات وطفلين مذبوحين بطريقة توحي بالانتقام.. فمن يكون الفاعل؟ وصبر الضابط يومين أو ثلاثة، ثم استدعي الأم إلي القسم، وظل يرهقها بأسئلة مباشرة، كما لو أنه يملك دليلا على جريمتها، وفجأة قالت ببرود: نعم أنا القاتلة! و«! قالت الأم: ارحتهم من متاعب الدنيا، فالحياة صعبة والناس "بقت وحشة جدًا وعيالي لن يتحملوا"!
باختصار نحن أمام تغيُرات يمكن القول إنها عنيفة في المجتمع تُربك «نفوسا» ضعيفة لا تقدر على التكيف معها، ولا يمكن التنبؤ بردود أفعالها. ولكن مادامت هناك حياة، هناك جريمة، ووراء كل جريمة حكاية أو قصة، ولابد من جانٍ، وأيضا مجنى عليه، وحتما هناك دافع، وبدون معرفة الدافع، لا نعرف الجاني، وبدون دليل، لا توجد قضية، والاعتراف سيد الأدلة، وجرائم العقل، غير جرائم القلب. في أي جريمة، وفي كل جريمة، فتش عن المرأة، أو عن المال، وأحيانا الفكر، وهناك أسباب أخرى، كالفقر والإدمان، والحسد والإحباط والانتقام والمرض، وحتى تنتهى الجريمة، لابد أن تختفى أسبابها، وهذا مستحيل، فالشر والحقد والغضب كامن في نفوس كثير من البشر.
والمجرم يرتكب جريمته بدافع التخلص من المشكلة أو بدافع المتعة، وأيضًا الألم، يبحث عن الحل أو عن المتعة، ويعذب ضحاياه بالألم، والعقاب يعكس الوضع، يفقده الحل السوي والمتعة، ويعذبه بالألم، ونظريات الإجرام متعددة، لكن التنظير شيء، ويبدو الواقع شيئا آخر، ولكل جريمة ظروف، وأيضا ملابسات.
وقديما قالوا: المجرم يحوم حول مكان جريمته، وهذه ليست قاعدة، فالمجرم قد يهرب بعيدا، وربما يرتكب جرائم أخري، وهناك غير محترف، وهناك مجرم بالغريزة، ومجرم بالضرورة، ومجرم بالصدفة، والأغبى يسقط أولا، ولكل مجرم أسلوبه وطريقته.
ونحن نعيش في عالم متفاوت، مليء بالتناقضات، البعض يسرق ليستمتع، والبعض يسرق ليعيش، وعندما تندر الموارد، يخرج الناس على القانون، وهذه هي الفوضى، وهذا التفاوت والتناقض، وهي عكس النظام، وصدق فيودوردوستويفسكي Fyodor Dostoyevsky الروسي حين ذكر أنه: بدون قانون تحكم الفوضى العالم، وتستمر الجريمة، وتستمر الحياة، وهذه صور أخرى داخل الأسر وداخل العائلات[3].

حبس أب عذب طفلته حتى الموت ..

أمرت النيابة بحبس أب قتل ابنته 4 أيام على ذمة التحقيقات ، ووجهت له تهمة القتل العمد وتعذيب المجنى عليها.
ترجع الواقعة عندما ورد إخطار لقسم شرطة عين شمس في مصر بوصول طفلة بها آثار ضرب وكدمات متفرقة في

جسدها وبالبحث والتحري تم الكشف عن ارتكاب والدها المتهم الجريمة، وكشفت تحقيقات النيابة العامة معه أنه يتعاطى المواد المخدرة، وكان دائم التعدي بالضرب عليها، وعندما فرت هاربة لوالدتها قام بإعادتها وتعذيبها حتى لقيت مصرعها.

عاطل ضرب والدته حتى الموت

وأمرت النيابة بحبس عاطل 4 أيام، لقيامه بالتعدي على والدته بالضرب حتى الموت، كما أمرت النيابة باستعجال تقرير الطب الشرعي وطلب تحريات المباحث حول الواقعة. تلقت المباحث بلاغا من الأهالي بمقتل سيدة داخل منزلها،وبالبحث والتحري تبين وجود جثة سيدة بأرضية غرفة نومها، ولا يوجد بها أية إصابات ظاهرية. وتبين من التحقيقات قيام ابنها ـ عاطل ـ بالتعدي عليها بالضرب، فتم ضبطه، وبمواجهته اعترف بضربها.

حبس أم قتلت طفلها خلال تأديبه...

أمرت النيابة بحبس ربة منزل قتلت طفلها بطريق الخطأ، في أثناء قيامها بضربه لتأديبه، فارتطم رأسه بالحائط فسقط جثة هامدة بقرية. وتم إخطار الأمن بالواقعة.وتوصلت التحريات، إلى أن والدته في يوم الحادث قامت بضربه لتأديبه لشقاوته ومعاكسته شقيقته الصغرى، وفى أثناء ذلك ارتطمت رأسه بالحائط وأصيب بالنزيف والكدمات.. تم القبض على الأم التي أكدت أنها لم تقصد قتله، وأنه قرة عينيها والولد الوحيد لشقيقتيه. فجأة كف الطفل عن الصراخ والاستغاثة من ضربات تلك السيدة التي انهالت عليه صفعا وركلا كعادتها كلما استفزها تصرف ما في أثناء لهوه في البيت. أصيبت السيدة بالذهول مع صمت الطفل المفاجئ، فراحت تهز جسده بكل ما أوتيت من قوة، حقا ما فعلته هو عمل جنوني غير عقلاني لكنها عندما تفقد أعصابها بسبب لعبه أو عدم امتثاله لأوامرها، تنتابها حالة شبه هيستيرية ثم تنهال عليه ضربا بأي شيء وبأي طريقة.

لكنه هذه المرة صمت صمتا أبديا، فطار عقلها وحملته لأقرب مستشفى ولكنه في الطريق ظل الطفل فاقد النطق متوقف الأنفاس وهى تطارد احتمالا ثقيلا يجثم على صدرها ولكن في المستشفى أخبرها الطبيب بمجرد الكشف عليه بأن الطفل قد مات!

لم تكن السيدة تنتمى إلى عصابة خطفت الطفل وأرادت إرهابه بالضرب المبرح ولا كانت سيدة منزل يعمل فيه الطفل خادما لديها ولا كانت مربية أطفال متحجرة المشاعر تتبع أسلوبا مفرطا في القسوة في معاملة الأطفال ولا حتى كانت زوجة أب يقسو قلبها على أولاد زوجها، فمن هي إذن وما علاقتها بهذا الطفل الذى خمدت أنفاسه إلى الأبد؟!

إنه ابنها البالغ من العمر أربع سنوات!.

لم تكن الإصابات التي تنتشر في جسد الطفل ما بين جروح ورضوض وكدمات، سوى دليل على أن تلك السيدة قد بلغت ذروة التهور في الضرب الذى لم يكن إلا شكلا من أشكال التعذيب. وما فعلته الأم قاتلة ابنها من محاولة إظهارها الجزع على موته، لم يتناسب مع هذه الآثار الوحشية البادية على جثته.

عقب قيام المستشفى بإبلاغ المباحث عن الجريمة الشنعاء، قررت الأم في التحقيقات أنها كانت تؤدبه فقط ولا يمكن أن تكون قد قصدت قتله!

فماذا يفعل طفل لا يزيد عمره على 4 سنوات حتى يستحق كل هذه القسوة ثم تكون النتيجة موته من جراء الضرب المبرح؟!

الكشف الذى أجرى على جثة الطفل يؤكد أن الأم لا تستخدم يدها فقط في ضرب الطفل، فهناك أثر واضح لشرخ في الجمجمة مدته لا تزيد على بضعة أيام قبل يوم وفاته!

تحريات المباحث والتقارير الطبية أكدت أن هذه الإصابة القديمة نسبيا، سبقت الجريمة بحوالي أسبوع عندما قامت الأم بضرب رأس الطفل بالحائط ولم يوقفها إلا انفجار الدم من رأسه! رغم خطورة تلك الإصابة لم تكف الأم عن تهورها في ضرب الطفل بتلك الطريق الوحشية ولم يكن أحد يستطيع أن يستجيب لاستغاثة الطفل الذى كان يتعالى صراخه بين الحين والآخر دون مجيب. عقب القبض عليها، لم تتوقف الأم طوال فترة إدلائها بأقوالها عن البكاء، لكنها لم تكف أيضا عن تبرير فعلتها المنكرة، بأن طفلها الذى قتلته بيدها كان مفرطا في «الشقاوة» ولا يسمع الكلام ولا يكف عن البكاء مما يستفزها لأنها «عصبية» وعندما تغضب لا تستطيع أن تتحكم في انفعالاتها!

نجاة 3 أشخاص من السجن في جريمة قتل..

البناءات التنفسية Psychological structuresللناس هي العالم الخفي الذى يصعب الاطلاع عليها والإحاطة بمفرداتها تماما فقد تموج بشتى التناقضات ويختلط فيها الخير والشر، وقد تصبح فجأة أسيرة للبغض والكره والحقد دون دوافع أو أسباب حقيقية قوية أو اضطراب عقلي أو نفسي، ما قد يدفع بها لارتكاب الجرائم التي قد تهيئ لها الإقدام عليها بدافع الرغبة في الانتقام، فإذا لم يتحقق لها ما أرادت وانقلب عليها لحكمة إلاهية، امتلأت لوعة وحسرة وندما على ما جنت لكن دائما بعد فوات الأوان.

كانت ليلة حالكة السواد تلك التي قضتها الأم وأبناؤها إثر مشاجرة كبيرة شهدتها القرية بأكملها، لم يعرف فيها النوم طريقا لجفونها، بعدما جرى لها وتعرضت لما تعرضت من اتهام وإهانة امام الجميع، خلاف مادى على مبلغ ضئيل بحساباتهم لدى بعض المتعاملين معهم لم يسددوه بحسب الميعاد المتفق عليه، تضخم ليصبح سببا في نزاع وفضيحة هزت

أرجاء البلدة وأصبحت مثارًا للحديث، وخوفا من مقصلة الحق التي تنتظرهم وتوقعهم بدفع مبلغ كما العادة مع كل خلاف كحل وحيد لإنهاء ما بدأ بعدما اختلط الامر ولم يعد هناك مجال للتبرئة أو الإدانة إلا الاحتكام للكبار والعقلاء لرأب الصدع والنزاع ووضع حد لما جري، لم يعد هناك مفر من التفكير للخروج من المأزق - ليلة كاملة ظلوا خلالها يروحون ويجيئون يفكرون استغرقهم الغضب والحنق، سلموا أنفسهم للغواية وتركوا آذانهم لهمس الشيطان وكيده ليفتك بهم ويدفعهم لارتكاب جريمتهم ظنا بأنهم قد يفلتون بها ويشفون مشاعرهم المجروحة ويثأرون لما جرى لهم ولحق بهم من عار ويذيقون خصومهم لوعة الالم، فكان ان تجرعوا الألم نفسه وأكثر، وكما زرعوا بذور الشر جنوها.

أعتبروا أنفسهم على ذكاء لم يكن لغيرهم من قبل، لجأوا للكيد والتحايل والضلال وتفتق ذهنهم عن حيلة ماكرة وخبيثة للتنكيل بهم، وبدلا من أن تثنى الأم أبناءها وتردعهم كانت من شاركتهم الفكرة وتفاصيلها،اتفقوا على أن يقوم الأبناء بالدخول على والديهم ليلا وإطلاق الخرطوش على والدهم لإصابته، ثم توجيه الاتهام لخصومهم، حيث لا يمكنهم الفكاك أو الهرب، فشجارهم وتوعدهم كان أمام الجميع واحتمالات تصديقهم بنفي الاتهام ستكون منعدمة أو ضئيلة، وهنا لن يكون لهم الحق في المطالبة بما لهم من مال أو عقد جلسة للتعويض، بل عليهم الدعاء لطلب السماح والغفران - وسرعان ما حزموا أمرهم بعدما اعجبتهم الفكرة وتمكنت منهم - لم يضيعوا الوقت، ففي اليوم التالي مباشرة خرج الأبناء وتركوا والديهم ليشهد الجميع أنهم كانوا وحدهم بمفردهم ثم عادوا مساء لينفذوا مخططهم الملعون بعد أن جلبوا السلاح، ودخلوا عليهم ولا أحد يعلم كيف طاوعتهم أيديهم وسولت لهم أنفسهم أن يصوبوا باتجاههما ليصيبوهما ويغادروا، حيث جاء دور الأم في الصراخ والعويل بعد إصابة الأب وتلقيها هي الأخرى طلقة في قدمها - لتوجه بعدها اتهامها للتجار الثلاثة بأنهم هم من اقتحموا منزلهم وباغتوهم بإطلاق الخرطوش، وأمام ما حدث سلفا وشهادة الشهود والإصابة البادية لم يكن هناك بد من تصديق الأمر والقبض على المتهمين وحبسهم، ورغم تطور الأمر لأبعد مما كان مدبرا ووفاة الأب، لم ترتدع الأم وأبناؤها، بل تمادوا نكاية في خصومهم وإمعانا في إيذائهم، لكن التحريات كشفت أن الزوجة هي من اتفقت مع أبنائها على إطلاق النار على زوجها للكيد للمتهمين والزج بهم للسجن انتقاما منهم على إهانتهم أمام الجميع. وقررت المحكمة إخلاء سبيل المتهمين الثلاثة بعد 3 أشهر من الحبس ظلما على جريمة لم يرتكبونها.وتم في النهاية ضبط المتهمين وخروج الأبرياء من السجن بعد أن كشفت الشرطة الحقيقة.

الرجولة الزائفة .. الابن الضال قتل أمه لرفضها زواجه ..

الفاشلون دائما مؤامراتهم الصغيرة تحاك من نسيج أجسادهم الفاسدة وفي ظلمة أنفسهم .. يسدون بها مساحة الفشل والإحباط بداخلهم، التي تتسع يوما بعد يوم حتى تكاد تبتلعهم .. خبيثة أفعالهم، مضطربة عقولهم .. منطفئة قلوبهم، لايقف الصنيع الطيب أو المعروف حاجزا دونهم ودون الغدر، فيمارسونه في الخفاء كوجبة سريعة في منتصف يومهم.

فهذا شاب تلفح بالجحود وارتدى عباءة الشيطان وتلطخت يداه بدماء أمه، فلم يرحم كبر سنها وانهال ضربا على والدته وهى تتوسل إليه أن يتركها ليس خشية على نفسها من الموت، ولكن خوفا بل رعبا على مستقبل ابنها، فهو فلذة الكبد وقرة العين حتى لو أزهق روحها ليتأكد المثل القائل:" قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي علي حجر". وكانت الأم سعاد تعتقد أن ابنها كان من ستتكئ عليه عند الكبر، وكان من سيحمل نعشها عندما يتوجه جسدها للثرى، لكن ابنها لم ترتجف أوصاله لتوسلات أمه واستمر الجاحد في جريمته ولم يترك والدته إلا بعد أن أزهق روحها. ترك القاتل والدته مسجاة على وجهها بأرضية غرفة نومها، وفر هاربا من المنزل على أمل ألا ينكشف أمره، ولكن قوة الخالق تقف بالمرصاد لأصحاب القلوب السوداء. وظل الغموض يكتنف مقتل هذه السيدة والعثور على جثتها داخل شقتها. واستطاع رجال الأمن العام، التوصل إلى أن ابنها هو مرتكب الحادث، وأنه تشاجر معها لرفضها زواجه من إحدى الفتيات والإقامة معها في نفس الشقة بسبب رفضها لسوء سلوكه وجلوسه بالمنزل بدون عمل فقام بالتعدي عليها بالضرب حتى الموت .

يذبح خاله أمام المارة ثأرا لمقتل شقيقه ..

أمرت النيابة بحبس شقيقين بعد أن هشم أحدهما رأس خاله بالخنجر وذبحه أمام المارة بقرية بمساعدة الشقيق، وتمكن رجال الأمن من ضبط المتهم. وكان الأمن قد تلقى إخطارا بالواقعة بمصرع شخص مصاب بطعنات نافذة بالرأس والجسم وجرح ذبحي بالرقبة. وكشفت التحريات أن خلافات قديمة تعود إلى أكثر من خمس سنوات وراء ارتكاب الجريمة، وأن المتهم سدد طعنات عدة لرأس خاله، سقط على إثرها جثة هامدة، انتقاما لمقتل شقيقه على يد أحد أقارب خاله.

ومهما تكن دوافع القاتلين إلى ارتكاب هذه الجرائم - التأديب أو المال أو الاختلاف في الرأي، ليس بين الناس الأقارب فقط بل بين الأزواج أو الأبناء أو الأمهات، أو حتى بسبب الغذاء أو المأكل والمشرب المعد لأحد من هؤلاء - فإنه لا يتصور أحد أن يقتل رجل مثقف وليس بلطجيا أو مجرما أفراد أسرته بالجملة وبأسلوب وحشي، متجردا من أية عاطفة إنسانية أو أبوية، اللهم إلا ما ادعاه أحد قتلة أبنائه من أنه ارتكب جريمته لحرصه على ألا يتعرضوا في حياتهم مستقبلا للضياع- بعد الحكم عليه بالإعدام.

وبصرف النظر عن الحاجة إلى تفسير نفسى لهذا النوع من الجرائم التي لا تتناسب مع الدوافع التي قالها مرتكبوها، فإننا نرى أن نشر ما يقع من جرائم مماثلة بالتفصيل قد يكون أحد الأسباب التي تزين للمقبلين على الجريمة أو للقتلة الجدد أو المتمرسين ارتكاب جرائمهم، باعتبار أنهم ليسوا أول من ارتكب هذه الجريمة، ومن ثم فإننا نرى أنه قد يكون من الملائم الحد من نشر كل هذه النوعية من الجرائم، أو الاكتفاء بالتنويه عنها دون تفاصيل وخطوات، وإذا كانت الأديان تحرم قتل

النفس بصفة عامة، فإن التحريم يكون أشد في مثل جرائم القتل هذه.. وليعلم هؤلاء القتلة أنه حتى الحيوانات لا تقتل صغارها.

والأمر يحتاج إلى دراسة كل حالة Case study بشكل مستفيض مع وضع القاتل تحت الملاحظة الدقيقة لفترة زمنية كافية، والكشف عليه نفسيا وعصبيا وعقليا بالطرق المباشرة وبالملاحظة غير المباشرة، وهو تحت الحراسة المشددة في إحدى المصحات النفسية الحكومية المعتمدة المنضبطة. وفي حالة جريمة قتل الأب والزوج وأطفاله الثلاثة وزوجته، والتي حدثت أخيرا كان لا بد من إتاحة الوقت وبذل الجهد في التعرف على تفاصيل الجريمة، وعدم التسرع في الإدلاء بأحكام مسبقة أو الاقتاء بفرضيات غير دقيقة أو غير موثقة، وإنما ترك الأمر للمتخصصين في مجال علم النفس وكذا في شؤون الطب النفسي الشرعي العدلي Forensic Psychology. وتبقى كلمة أخيرة، وهي أن العقاب ليس بالضرورة أن يرتبط بالإدانة وثبوت الجريمة بقدر ما يكون مرتبطا بعامل الردع العام، وحق المجتمع في أن يطمئن ويأمن لعدم تكرار مثل هذه الجرائم بواسطة كل من تسول له نفسه ارتكاب مثل هذا الفعل ..

الحالة النفسية التي تنتاب مرتكبي مثل هذه الجرائم من منظور علمي لها احتمالان: الأول أن يكون الجاني مصابا باضطراب نفسي أو عقلي أو بمرض عقلي من الأساس، ولكنه يتخفى في وضعه الاجتماعي ومنصبه ويجعل من حوله لا يعلم أو يتغافل عن تلك المسألة، حتى إذا بدر منه فعل ما يدل على ذلك من الممكن أن يظنوا أنه نتيجة ضغط الشغل والعمل ومسؤولياته الكثيرة، وهذا المرض العقلي أو الاضطراب العقلي أو النفسي قد يكون وراثيا أو نتيجة أسباب بيئية. والاحتمال الثاني هو أنه قد يكون تحت تأثير مواد مخدرة، وعندما يجتمع الاحتمالان معا ويتفاعلان مع بعضهما ويكون الشخص قد تناول مواد مخدرة ربما كعلاج. وهذه المواد من الممكن أن تسيطر على قدراته العقلية واتزانه النفسي، وللأسف الإنسان في حالته المرضية النفسية أو العقلية يذهب عقله أو يتغيب Absent ويتحول إلى وحش كاسر، ويتخيل تصورات وضلالات وأوهام Delusions غير طبيعية، وسهل جدا أن يرتكب أية جريمة حتى مع أقرب الناس إليه، فالقاسم المشترك الأعظم في المرض العقلي أو النفسي أو الاضطراباتأ و المواد المؤثرة نفسيا هو تعطل العقل ولو مؤقتا ..

وعن الخلافات الأسرية أو بين الزوجين وهل يمكن أن تؤدي إلى ارتكاب هذا النوع من الجرائم البشعة؟ إن الخلافات الزوجية ليست مبررا لقتل الأولاد، فما ذنب هؤلاء الأبرياء فالزواج رباط مقدس، والكتب السماوية كلها تدعو إلى حسن المعاشرة والسكينة والمودة والرحمة، والخلاف في وجهات النظر بين الزوجين وارد وأمر طبيعي أن يحتكما إلى العقل والاجتهاد بالتفكير العقلاني Rational thinking، ولكن إذا اشتد الخلاف بينهما يجب أن يلجأ كل منهماإلى أقرب الناس، أو أحد رجال الدين، فدائما رجال الدين يحظون بقبول ومصداقية لدى أ غلب الناس، وذلك للتقريب بينهما وحل المشكلة، وأن يضعا دائما أمام أعينهما أن العلاقة ليست مقصورة فقط على كليهما، بل إن هناك نتاج الشراكة أو الزواج فيما بينهما وهم الأبناء زينة الحياة الدنيا، وهم رزق ونعمة وأمانة من الله عز وجل يجب الحفاظ عليها.. ولكن إذا تعثر الأمر فهناك الطلاق Divorce، والذى جعله الله مخرجا حينما تستحيل الحياة الزوجية لأية أسباب مهما كان نوعها..

كذلك لا بد من ضرورة التشديد والرقابة على الصيدليات في منع تداول وبيع المواد المؤثرة نفسيا Drugs بدون وصفة طبية. وأيضا ضرورة تشديد الرقابة على المراكز الطبية الخاصة باستخراج شهادة فحص ماقبل الزواج، وأن إجراءات الفحص المتبعة حاليا لا تهتم إلا فقط بالنواحي البيولوجية، بل يجب أن تتضمن اختبارًا نفسيًا للنواحي الانفعالية، وأن يتم ذلك بمأخذ الجد وليس بشكل روتيني أو تسديد بيانات شكلية حتى لاتحدث كوارث وجرائم بمثل هذه الفظاعة.

وهناك متطلب بلفت نظر صناع الدراما وما تتضمنه من مشاهد عنف الجريمة، التي تؤثر بشكل كبير في حياة وسلوكيات المشاهدين.فمثلا، مازال أحد مشاهد البشاعة العنيفة في انتقام زوجة من زوجها بصب النار عليه وقتله حرقا في بانيو الحمام عالقا في ذهن بعض الناس.إذ إن هذه المشاهد الدرامية تتمركز في العقل اللاواعي أو اللاشعوري، وعند غياب العقل سواء بالمرض النفسي أو العقلي أو تحت تأثير مواد نفسية، يتم استرجاع هذه الصور والمشاهد العنيفة، ويتم تنفيذها على المستوى اللاواعي أو اللاشعوري، سواء كان ذلك لأسباب موضوعية أو عادات أو أسباب غير موضوعية.

وأحد الأسباب هو الطعام

الغذاء نسق حياتي مهم لأنه من أهم أسس ضبط استقامة الحياة الصحية والنفسية، ويترتب على نقص الغذاء أن يصبح الإنسان عليل البدن. كما أن نقص الغذاء يرتبط بتوفير هرمونات خاصة بالغضب والانفعال وعدم التحكم في اللفظ او الفعل، ولزيادة معدل تناول الغذاء عن القدر الذى يتطلبه الإنسان الوصول إلى مراحل التخمة والكسل وبلادة الإحساس وارتفاع معدل الأمراض، وكلها عوامل تلقي بالمسئولية غالبا على الزوجة، ومن الممكن أن تتسبب في المشكلات الزوجية والأسرية.

يجب الاعتدال الكامل في الوجبات، فهناك هرمونات لا يتم فرزها إلا بتوازن واعتدال الأكل، كما هو الحال في هرمون «الجريلين Ghrelin» أحد الهرمونات المنظمة للشهية، ودوما لابد أن تحذر الزوجات من أضرار الجوع للرجل وعدم الاهتمام به، وذلك بطهو أطعمة من أغذية صحية وعالية القيمة كلما أمكن، وذات شكل ظاهري مشهي ورائحة تزيد الرغبة فيما تقدمه من غذاء، وبدرجة نظافة عالية بعيدة عن التلوث الميكروبي أو الفطري أو المعدني للحفاظ على صحة زوجها وأفراد أسرتها.. كما لابد للزوجات والمهتمين بالغذاء أن يدركوا تماما ما هو الغذاء الأكثر إفادة، والأغذية المهدئة التي تفيد في إفراز هرمونات السعادة مثل السيرتونين Serotenin أو أغذية تفيد في تقوية الذاكرة وتقليل الغضب لإدراجها في الغذاء يوميا، وحسب الاحتياج إليها، مع ضرورة التثقيف الذى يعلمنا أن لكل مرحلة سنية طرقا وأصنافا غذائية خاصة،

فالغذاء الذى ينفع الأبناء يختلف عن المناسب للآباء والأجداد، فلكل مرحلة سنية مستوى للجهاز الهضمي يختلف في قوته وإفرازاته وحيويته.

وهناك عدة إرشادات يجب أن تراعيها الزوجات في موائد الأزواج للابتعاد عن إحداث الغضب الذى يسببه الغذاء، وقد يصل إلى فشل العلاقة الأسرية هي كالتالي: محاولة الامتناع تماما عن وصول الزوج أو إعطائه قدرا كبيرا من الغذاء، فللجوع مخاطره وللتخمة أيضًا سلبياتها، كما يجب تنويع الوجبات بين الأصناف الغذائية كلما أمكن بها.

شيء طبيعي أن يختلف الزوجان، سواء على أمور أسرية أو غذائية أو مالية، ويقع الشجار بينهما.. وبعد هدوئهما يبادر الزوج المخطئ أو الزوجة المخطئة بكلمة «آسف» أو «حقك علي».. وأحيانًا تنزل بردًا وسلامًا على الطرف الآخر، وفى أحيان أخرى لايكون لها أي معني، بل ربما تنكأ الجراح وتزيدها ألمًا. فمتى يكون الاعتذار مقبولًا؟ ومتى يكون طعنة جديدة؟

«جراحات السنان لها التئام.. ولا يلتئم ما جرح اللسان».. كلمة آسف بين الزوجين تتوقف على التركيبة النفسية لكل منهما، فالبعض يسعده ويطربه أن يسمعها، وعفا الله عما سلف، والبعض الآخر لايقبل مبدأ الاعتذار من أساسه، والاعتذار أيضًا يتوقف على درجة الحب والتسامح بين الزوجين، وعلى حجم الإهانة، وهذا هو الأهم.

إذا حدث وجاءت إهانة على لسان الزوج لزوجته، فالكثير من الزوجات ـ بل أغلبهن ـ يتقبلن الاعتذار من الزوج في البداية حرصًا على العشرة وعلى الأبناء، وهذا ليس ضعفًا من المرأة، بل هو قمة القدرة على التحمل والقوة، ولا تستطيع أي زوجة عاقلة أن تضع(العيش والملح) وأبناءها في ميزان مع كرامتها، وإن حاولت فدون شك سوف ترجح الكفة الأولى.

إن كلمة (آسف) تكررت على مسامعها مئات بل آلاف المرات على لسان زوجها، أحيانًا للاعتذار عن أخطاء بسيطة، وفى معظم الأوقات للاعتذار عن أخطاء جسيمة.. وكان لابد من وقفة تقيم المرأة حياتها مع زوجها قبل تقرر الانسحاب وأن تتحول الحياة إلى بغض وكراهية.

فمن العقل ألا يفعل الإنسان ما يأسف منه، فأنا أعتقد أن لدينا من العقل ما يدفع عنا غائلة التأسف، ومع ذلك فمن المؤكد أن هناك مرات قليلة جدًا خلال رحلة زواجنا المشترك كان يلزم فيها كلمة (آسف) للزوجة، ولكن كلا منهما حريص على ألا ينطق الطرف الآخر بهذه الكلمة حفاظًا على المعنى الكبير الذى يربط بينهما، كما يقول البعض، ويقوا أحد الأزواج فالحب أكبر من أن يحتاج إلى كلمة (آسف)، وأنا شخصيًا لاأحب أن تقف زوجتي موقف الضعيف معي، أريدها دائمًا قوية قوة العقل، وأيضا رقيقة رقة النسيم، حبيبة كأن حبها ولد بالأمس. ولقد اتفقنا من أول يوم اتفاقًا احترمناه هو ألا نترك مشكلة تبيت في بيتنا إطلاقًا، وأن يحاول كل طرف منا إنهاء المشكلة ولا يدخر جهدًا في ذلك، وكنا نقول إن تعكير العلاقات هو في الحقيقة فرصة لصفوها.

وإذا كانت هذه قناعات الأزواج والزوجات فما هي الآثار النفسية والاجتماعية لعبارة «أنا آسف» على العلاقة الزوجية؟

من المبادئ الأساسية المتفق عليها أن الاعتراف بالخطأ هو الخطوة الأولى لتصحيحه، والاعتذار يجب أن ينبع من إحساس حقيقي بالخطأ ولا يكون مجرد عبارة دون استعداد لعدم تكرار الخطأ. وبالرغم من أهمية الاعتذار إلا أن الكثيرين يعتقدون أنه يقلل من الكرامة ويسيء للكبرياء على عكس الحقيقة. على الزوج ـ باعتبار الطرف الأكثر حساسية لتقديم الاعتذار ـ أن يدرك أن من مصلحته الشخصية أن يريح زوجته نفسيًا، فالزوجة إذا شعرت بأنه ليس أمامها فرصة للتعبير عن رأيها سينعكس ذلك على حالتها النفسية وعلى الأسرة ككل. لذلك على الزوج ألا يسخر أو يقلل من أهمية مشاعر زوجته، لأن تكرار ذلك يصيبها بخيبة أمل وفقدان التوافق الأسري والزواجي Family and marriage [3،4،5] Psychological compatibility،وتتطور إلى اكتئاب Depression أو انطوائية Introversion، فالزوجة تحتاج من زوجها المشاركة والتفاهم والاستيعاب.. وأحيانا الاعتذار.

إن هناك ضرورة لبذل الجهد لتسوية أية خلافات عائلية أو زواجية، وذلك لحماية العلاقات الزوجية وأفراد العائلة من الصدمات التي تنشأ عن عدم احترام مشاعر الطرف الآخر. والتي تؤدي أحيانا إلى ارتكاب جرائم تصل أحيانا إلى درجة من البشاعة غير متوقعة، وخاصة في مجتمعات معروف عنها التعاطف والمودة والحب والوفاء، مثل المجتمع المصري.

المراجع

1- Bitter, J . (2009) . Theory and practice of family therapy and counseling . Belmont : Broos / Vole – Cengage

2 – جريدة الاهرام القاهرية (2018- 2019) :الاعداد خلال الفترة من 27 ديسمبر/ 2018 الى 14 يناير / 2019 القاهرة : دار الاهرام .

3-Pelonis, P. (2002). Facing change in the journey of life Athens : Greece : F.Y.Traki publications .

4-Carter , B. and Mcgoldric, M . (2005). The expanded family life cycle : Individual family and social perspectives . Boston : Allyn and Bacon .

5-Codd , H . (2008). In the Shadow of prison , families , imprisonment and criminal justice . London : Routledge , taylor and Francis group.